قرأت لك

من أين نبدأ حتى أصنعاء

تأليف توركيل هانس ● ترجمة محمد أحمد الرعدى

عرض وتعليق الأستاذ/ عبدالله حمد الحقيل

تفضل مركز الدراسات والبحوث اليمني بإهداء مجلة «الدارة» نسخة من مطبوعاته ومن بينها هذا الكتاب الذي يحكي قصة البعثة الدنماركية العلمية التي قام بها العلامة نيبور مع أربعة علماء أوربيين إلى بلاد اليمن بين عامي ١٧٦١م ــ ١٧٦٧م. . ويشتمل الكتاب على مقدمتين وسبعة أقسام، المقدمة الأولى كتبها الدكتور عبدالعزيز المقالح، والثانية مقدمة المترجم محمد أحمد الرعدي، ويبدو أن النص الأصلي للكتاب المكتوب باللغة الإنجليزية والذي ترجم إلى اللغة العربية لاتوجد له مقدمة. . ، وإذا ألقينا نظرة شاملة على موضوع الكتاب فإننا نجده يحكي لنا بأسلوب قصصي طريق رحلة بعثة علمية أمر بإرسالها

ملك الدنمارك إلى بلاد اليمن التي يسمونها «العربية السعيدة» على أن تمر البعثة في رحلة الذهاب باستانبول ثم مصر وأخيراً اليمن ، وبعد إنجاز مهمتها هناك تعود إلى أوربا عن طريق العراق وسوريا واستانبول . .

تتكون تلك البعثة من خمسة أعضاء وخادم ، اثنان منهم من الدنمارك ، واثنان من ألمانيا ، وواحد من السويد ، بالإضافة إلى الخادم وهو سويدي وأسماؤهم كما يلي :

١ ــ البروفسور فردريك كريستيان فون هافن . . متخصص في اللغات وهو دنماركي . .
٢ ــ البروفسور بتر فورسكال عالم نبات وفيزيائي . . وهو سويدي . .
٣ ــ المهندس الملازم كارستن نيبور عالم في الرياضيات والفلك . . ألماني . .
٤ ــ الدكتور كرستيان كرامر، طبيب وفيزيائي ــ دنماركي . .
٥ ــ الهر جورج ولهم بورنفانيد، فنان ونحات ــ ألماني . .
٦ ــ برجرن ــ خادم البعثة ــ سويدي . .

كانت المحطة الأولى للبعثة التي تحركت من كوبنهاجن في الرابع من شهر كانون الثاني «يناير سنة ١٧٦١ هي مدينة استانبول، وبعدها توجهت إلى الإسكندرية والقاهرة، وبعد القاهرة ذهبت إلى سيناء وبعد ذلك غادرت السويس متجهة إلى جدة ومنها إلى بلاد اليمن «العربية السعيدة» وبعد أن تجول أعضاؤها في الأماكن المختلفة بالأراضي اليمنية ورسموا خرائط للأماكن التي زاروها وجمعوا نماذج من النباتات والزهور التي عثروا عليها، مرض أحدهم وهو فون هافن وتوفى، ثم مرض عضو آخر ومات بعده بشهر واحد ، وهو فرسكال، وعلى إثر ذلك غادر الباقون من أفراد البعثة اليمن على ظهر سفينة إنجليزية، وذهبوا إلى الهند وهم في حالة إعياء شديد، وفي أثناء إبحارهم مات فنان البعثة بورنفانيد وبعده بيوم مات خادم البعثة برجرن وألقى بجثتيهما في ماء المحيط ، وبعد ذلك مات الدكتور كرامر في بومباي بالهند، ولم يبق على قيد الحياة من أعضاء البعثة سوى شخص واحد فقط وهو نيبور الذي عاد من الهند عن طريق مسقط وإيران والعراق وحلب واستانبول وأوربا حتى وصل إلى الدنمارك . .

هذا باختصار شديد موضوع الكتاب الذي نحن بصدده والذي يُعد من كتب الرحلات ، فهو يروي بموضوعه الطريف الجاد ، وبأسلوبه الروائي الجذاب تفاصيل رحلة علمية شيقة خطط لها العالم الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» الألمانية، ومعنى هذا

أن الذي فكر في أمر تلك البعثة عالم ديني في اللاهوت، وألماني يقيم في ألمانيا ومن أعضاء هيئة التدريس بجامعة ألمانية، وأن التفكير في تلك البعثة لم يكن صادراً عن أحد المسئولين في الدولة التي أرسلتها وتحملت نفقاتها وهي الدنمارك..

وعلينا أن نطالع سوياً العبارة التالية لإثبات تصورنا هذا :

«لقد أبحرت السفينة «جرين لند» من كوبنهاجن عام ١٧٦١ ولكن البداية الحقيقية للمشروع كانت في آيار «مايو» لعام ١٧٥٦ ، عندما بدأ المستشرق، عالم اللاهوت الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» يتقرب من برن ستورف وزير الخارجية الدنماركي، كان ميشاليس مشهوراً بأفكاره المبتكرة، وقد ظلت أحد هذه الأفكار تعتلج في صدره حتى اقترح على وزير الخارجية تدريب بعض المبشرين الذين يذهبون كل سنة إلى ترنكبار «بالهند» ليقوموا باكتشاف جنوب شبه الجزيرة العربية»[١]..

ثم عبارة أخرى تقول «واقترح البروفسور ميشاليس في رسالة وجهها إلى وزير الخارجية على الحكومة الدنماركية أن تقدم منحاً تدريبية مدتها ثلاث سنوات لطالبين في جامعة جوتنجن ، كي يحضرا بعدئذ إلى كوبنهاجن لتدريب المبشرين الذين تم اختيارهم لهذه الرحلة تدريباً أولياً متقناً»[٢]..

وبعد موافقة ملك الدنمارك على موضوع تلك البعثة المذكورة تحول التفكير إلى جعلها بعثة علمية وذلك لحب الأوربيين في ذلك الوقت للعلم وتسابق الدول الأوروبية على تحقيق الاكتشافات العلمية لتخليد ذكراهم عبر العصور، ونجد في البيان الملكي الرسمي الصادر عن مهمة البعثة بعد بدء رحلتها بأسبوع بجريدة كوبنهاجن بوست مايشير إلى ذلك :

«إن جلالة الملك في هذا الوقت العصيب، برغم مشاغله الرسمية المرهقة، يناضل دون ملل من أجل غزو آفاق جديدة للمعرفة والتقدم العلمي، وتحقيق مجد أكبر لشعبه، لقد أرسل بعثة من العلماء على ظهر السفينة «جرين لند» وسوف يرحل أعضاؤها عن طريق البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية، ومن هناك يرحلون عبر مصر إلى العربية السعيدة، ومن ثم يعودون منها عن طريق سوريا إلى أوروبا..»[٣] وفي مكان آخر من الكتاب نجد هذا النص :

«فقد كان من تقاليد ذلك العصر مساندة ودعم الفنون والعلوم، وكان فردريك الأكبر ملك

بروسيا يقضي أوقات فراغه في مناقشات فلسفية مع فولتير وفي العزف بالناي مع يوهان سبستيان باخ، وهو بهذا قد ضرب المثل بفردريك ملك الدنمارك. لكن إذا سمح ملك الدنمارك لنفسه بالاستسلام لقضاء أوقات فراغه في المناقشات الفلسفية واللهو الفني فإن هذا لابد أن يكلفه الكثير من صحته وقواه، ولهذا فقد أولى هو ومستشاره «ملتك» أهمية كبرى للشعبية والتقدير اللذين سينالهما الملك لدى الشعب الدنماركي من جراء الأخذ بسياسة تشجيع العلوم والفنون، وهما بهذا كانا على صواب ولم يكونا واهمين، فقد تأكد لهما أن مساندتهما للعلوم والفنون مجلبة لكسب الشهرة مستقبلاً .. كما كان يعني أيضاً بما بعد الموت.. فقد كانت الرغبة لديهم أصيلة في أن تعيش ذكراهم بعدهم بوقت طويل، لأن سذاجتهم كانت كافية لأن توجد لديهم بعض الإحساس نحو التاريخ والوقت، فعلقوا أهمية كبرى في أن تكون ذكراهم عطرة لدى الآخرين، حتى لدى من عاش بعد وفاتهم بمئات السنين..»[٤]..

وعلى الرغم من أن البعثة تحولت من بعثة تبشيرية إلى بعثة علمية كل واحد من أعضائها عالم في مجال معين، فإننا نجد أن الذي اختار أعضاء البعثة هو نفسه عالم اللاهوت الألماني ميشاليس الذي أشرنا إليه سابقاً.. ونجد أن عضوين مهمين في البعثة قد درسا ــ إلى جانب تخصصها العلمي الدقيق ــ علم اللاهوت، ولعل هذا الاختيار لم يأت مصادفة..

«كان الدنماركي فردريك كرستيان فون هافن هو أول من عين منهم في البعثة وكان أكبرهم، ولد عام ١٧٢٧م، لأب كان يعمل كاتباً، ولم يعرف إلا القليل عن حياته المبكرة، عدا أنه فقد والده في الحادية عشرة من عمره، واستطاعت والدته تدبير استمرار دراسته، وأدى بنجاح اختباراً في علم اللاهوت وهو في الواحدة والعشرين..»[٥].

«.. كان فون هافن في هذا الوقت قد أكمل دراسته لعلمي اللغة واللاهوت.. منذ وقت طويل»[٦]..

ويتحدث الكتاب عن العضو الثاني فورسكال هكذا :

«ولد في «عام ١٧٣٢م ويبدو أنه في سن العاشرة انخرط بجامعة أبسلا، حيث كان عليه أن يدرس العلوم الدينية.. وفي ١٣ تشرين الأول «أكتوبر» سنة ١٧٥٣ غادر البلاد ليلتحق بجامعة جوتنجن، حيث عزم على دراسة علم اللاهوت والفلسفة واللغات الشرقية على يد

البروفسور ميشاليس..[٧]..

ولنتحدث عن تلك الرحلة المثيرة بتفاصيل أكثر من واقع مطالعتنا للكتاب «من كوبنهاجين إلى صنعاء» المترجم إلى اللغة العربية..

القسم الأول من هذا الكتاب يتضمن سبعة فصول، وفي هذا القسم يحكي الكاتب عن بداية رحيل البعثة، وكيف أن الخمسة المشتركين في البعثة ركبوا في الرابع من شهر كانون الثاني «يناير» سنة ١٧٦١ قارباً من كوبنهاجن ليصلوا به إلى السفينة «جرين لند» الواقفة في عرض البحر لتوصيلهم إلى القسطنطينية «استانبول» عبر البحر الأبيض المتوسط، ثم يواصلون رحلتهم إلى الإسكندرية، فالقاهرة، فالسويس، ومنها يواصلون رحلتهم إلى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية (اليمن) عبر البحر الأحمر عن طريق جدة. ثم يستطرد الكاتب في حديثه ويعود إلى بداية التفكير في مثل هذه البعثة وعن كيفية اختيار أعضائها ، ويذكر أن عالم اللاهوت الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» الألمانية هو الذي فكر في موضوع تلك البعثة واستغل صداقته لوزير خارجية الدنمارك، وعرض عليه فكرته، على أن تقوم الدنمارك بتنفيذها وتمويلها..

لاقت الفكرة هوى في نفس وزير الخارجية واستطاع أن يحصل على موافقة ملك الدنمارك، بعد ذلك اقترح ميشاليس على وزير الخارجية الدنماركي أن يتولى قيادة تلك البعثة عالم اللغات النرويجي ستروم ، ولكن تسببت غيرة فون هافن الدنماركي ــ وهو عالم في اللغات أيضاً ــ في إعاقة تعيين ستروم ، واستطاع فون هافن بوشايته وبأسلوبه الخاص أن يحصل على قرار تعيينه لقيادة البعثة، كما تم اختيار عضوين آخرين بالبعثة وهما كارستن نيبور الألماني ، وهو عالم في الرياضيات والفلك، وفورسكال السويدي ، وهو عالم في النبات والتاريخ الطبيعي ، واستطاع فون هافن أن يحصل على فترة سماح لمدة سنتين اعتباراً من سنة ١٧٥٦ بمنحة سنوية تقدر بما يعادل في وقتنا الحاضر (١٢٨٠٠) ريال سعودي وذلك للدراسة وللتحضير للقيام بالبعثة، وخلال تلك المدة استطاع هافن المماطلة والمراوغة في إطالة المدة التي حصل عليها إلى ثلاث سنوات بدلاً من سنتين وذلك بوجوده بعيداً عن الدنمارك وتجوله في عدة بلاد ، منها فرانكفورت وستر اسبورج وروما وإخفائه مكان وجوده في أي بلد منها وتنقلاته بين تلك البلاد

بطريقة سرية، مما تسبب في عدم استدلال المسئولين في الدنمارك على أي عنوان له . .

وعندما عاد فون هافن إلى كوبنهاجن للبدء في القيام بالرحلة، وجد أن فورسكال السويدي قد حصل على لقب البروفسور ، ولم يستطع هو الحصول على هذا اللقب، كما أنه لم ينجح في تعيين المسئولين إياه رئيساً للبعثة كما كان يطمح في ذلك . . وأصيب بخيبة أمل عندما علم أن جميع أعضاء البعثة متساوون في الدرجة، أي كلهم في درجة واحدة، كما لم يسمح بأن تكون له أية علاقة بالشئون المالية للبعثة، وذلك بعد أن عين المستر نيبور أميناً لصندوق البعثة . . وأخيراً صدرت للبعثة تعليمات ملك الدنمارك بخط سيرها وهو ذهابهم أولاً إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية فالقاهرة ثم سيناء وبعد ذلك جنوباً عبر البحر الأحمر إلى مدينة المخاء على أن تمكث البعثة في العربية السعيدة سنتين وعند الضرورة ثلاث سنوات . .

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يشتمل على خمسة فصول :

في هذا القسم يحكي الكاتب الأهوال التي لاقاها أفراد البعثة على ظهر السفينة الحربية «جرين لند» بسبب هياج البحر وثورته وشدة العواصف، وبرغم ذلك فإن فورسكال كانت أعصابه هادئة ولم يتأثر بذلك وإنه كان من حين لآخر يدرس أنواع الأعشاب والكائنات البحرية التي تصادفه، ومن ناحية أخرى كان نيبور يرصد بآلته الفلكية النجوم ويقيس بعد الشمس ويحاول تحديد المكان الذي توجد به السفينة ، أما فون هافن فقد طلب من المسئولين الدنمارك السماح له بالنزول في هلسنجر عندما ترسو السفينة عليها على أن يذهب براً إلى مرسيليا وهناك ينتظر وصول السفينة وعليها أفراد البعثة الباقون ، وبعد أن تقابل أعضاء البعثة مع فون هافن في مرسيليا بدأت تظهر الخلافات والمشاحنات بينهم ، ووجه فون هافن إهانات قاسية إلى فورسكار . . وبدأ الاثنان يتجاهران بالعداء ، وعندما وصلوا إلى جزيرة مالطة بقوا بها ستة أيام جمع فورسكال خلال بقائهم بالجزيرة قائمة نباتية ضمت ٨٧ نباتاً مختلفاً . . وعندما وصلوا إلى القسطنطينية استغل فورسكال فرصة بقائهم هناك لعدة أسابيع فكان دائم التجوال من مكان إلى آخر وزار جميع الحدائق الرئيسية ليجمع منها الزهور النادرة كما زار عدة مدن على طول شاطىء بحر مرمرة وعلى طول المضايق حتى البحر الأسود ، وبعد ذلك غادروا القسطنطينية على ظهر باخرة تركية وصلوا بها إلى مدينة الإسكندرية .

القسم الثالث: ويشتمل على سبعة فصول:

في هذا القسم نزل أعضاء البعثة إلى مدينة الإسكندرية وقام نيبور ببعض أبحاثه الفلكية في المدينة مستعيناً بالأجهزة الفلكية الموجودة معه، وركبوا جميعاً في ذات يوم قارباً تجولوا به في فرع من فروع نهر النيل حتى وصلوا إلى مدينة رشيد ثم واصلوا رحلتهم النيلية، وكانت فرصة لفورسكال ليجمع فيها الزهور والنباتات التي يشاهدها في طريقه وعندما وصلوا إلى القاهرة استأجر بعضهم بيتاً للإقامة به ، وأقام الآخرون بمنزل القنصل الهولندي، وأخذ فورسكال يقوم برحلات صحراوية، حيث كان يضطر أحياناً إلى قضاء الليالي في القرى الصغيرة، واستطاع أن يؤلف مجموعة تضم أكثر من ١٢٠ زهرة من أنواع مختلفة معظمها كانت غير مألوفة، كما أنه تمكن في ربيع عام سنة ١٧٦٢ من كتابة بحثين في وصف النباتات والحيوانات التي جمعها، كما ذهب فورسكال وفي صحبته نيبور إلى الأهرامات، واستطاعا تسلق هرمي خوفو ومنقرع وقاس نيبور ارتفاع هرم خوفو، ومكثت البعثة بالقاهرة أكثر من سنة، وخلال بقائهم بها جاء الأمر الملكي إلى فون هافن بالذهاب إلى سيناء لاكتشاف الجبل الذي يطلق عليه سكان المنطقة العرب اسم جبل «المكاتب» والذي قال بعض الانجليز عنه إنه يوجد على وجه صخرة به كتابة.. يفترض العلماء الأوربيون أن النبي موسى عليه السلام هو نفسه الذي كتبها، حين قاد شعبه في الهروب من مصر عبر صحراء سيناء..

القسم الرابع: ويشتمل على أربعة فصول :

تترك البعثة القاهرة بصحبة قافلة من العرب الذاهبين من القاهرة إلى السويس على ظهور الجمال، وتستمر هذه الرحلة حوالي اثنتين وثلاثين ساعة، وبعد وصولهم مدينة السويس يجدون فندقاً فيستأجرون غرفاً فيه للإقامة هناك .

ولم يقبل أحد من أفراد البعثة مصاحبة فون هافن في الذهاب إلى صحراء سيناء سوى نيبور وساعدهما فورسكال الذي يعرف اللغة العربية في التفاهم مع بعض مشايخ العرب لتزويدهما ببعض المرشدين العرب لمرافقتهما في رحلتهما وإرشادهما إلى الأماكن التي يريدان زيارتها ولم يستطع فون هافن في رحلته إلى سيناء تحقيق أي شيء، لأنه لم يستطع العثور على الأحجار

المكتوب عليها كتابات عبرية، ولم يسمح له بدخول ديرسنت كترين للاستفادة بالمخطوطات القيمة الموجودة بمكتبة الدير التي تعد ثاني مكتبة في العالم إذ ذاك بعد مكتبة الفاتيكان، حيث أنها تحوي على ٣٥٠٠ مخطوط.. وعاد فون هافن إلى السويس بخفى حنين.

القسم الخامس: ويشتمل على خمسة فصول:

في الخامس من تشرين الأول «اكتوبر» سنة ١٧٦٢، ركب أعضاء البعثة قارباً من السويس حملهم إلى السفن التي أبحرت بهم حتى ميناء جدة، واضطروا إلى البقاء ستة أسابيع في جدة انتظاراً للسفن القادمة من المخاء والتي ستحملهم إلى اليمن وركبوا أول سفينة قادمة من هناك وبدأوا رحلتهم إلى اليمن على ظهر سفينة مخصصة لحمل البضائع وليست مخصصة للركوب الآدمي، ووصلوا إلى ميناء اللحية اليمنى ونزلوا في مدينة اللحية بعد أن أحسن حاكمها استقبالهم وتركوا بالسفينة صناديقهم المملوءة بالنماذج الثمينة من النباتات والحيوانات البحرية التي جمعها فورسكال في أثناء رحلتهم، وتعهد شاب عربي من أولاد أحد التجار الأغنياء بالمخاء بأن يجعل جمرك المخاء يحتفظ لهم بهذه الصناديق في أمان، حتى يصلوا إلى مدينة المخاء لاستلامها من الجمرك هناك.

قام حاكم مدينة اللحية بتسهيل مرور البعثة من الجمرك واستضافهم بمنزل مبنى من الحجر وقدم لهم العشاء وأبدى استعداده لدفع نفقات سفرهم على السفينة التي جاءوا عليها من جدة، وكان لهذا الكرم وحسن الاستقبال وقع حسن على نفوس البعثة الأوروبية مما جعل نيبور يكتب في مذكراته هذه العبارة «فيما إذا كان يمكن أن يحدث مثل هذه المبادرة الطيبة من قبل السكان الأوروبيين، لمسافرين عرب في أي مكان في أوروبا..»[٨]..

استطاع نيبور عمل خريطة لمدينة اللحية، كما استطاع فورسكال أن يتجول في الأراضي الشاسعة المحيطة بالمدينة بحرية وفي أمان، وأن يجمع مايشاء من أنواع النباتات التي يصادفها.. وكانوا جميعاً سعداء بوجودهم في اللحية.

بعد ذلك ترك أعضاء البعثة مدينة اللحية وقرروا الذهاب إلى مدينة بيت الفقيه، وفي الطريق عندما يحل الليل كانوا يبيتون في إحدى القرى المنتشرة على طول الطريق وكان الفلاحون يذبحون لهم «الخرفان» تنفيذاً لأوامر حاكم اللحية، وبعد أن وصلوا إلى مدينة الفقيه، اتخذوها مركزاً لاستكشافاتهم. فقد ذهب فون هافن مع كرامر إلى ميناء الحديدة

وذهب فورسكال نحو الشرق ، حيث توجد تلال البن والأراضي الخضراء ، وذهب كرستن نيبور إلى الصحاري المترامية محاولاً عمل خريطة كبرى لليمن.. وفي يوم من الأيام قرر فورسكال ونيبور الذهاب إلى مدينة تعز لكي يتمكن نيبور من استكمال الخريطة التي يرسمها.. وفي طريق عودتهما إلى بيت الفقيه لمح فورسكال شجرة البلسم المكاوي الأصلية التي كان يحلم برؤيتها منذ اليوم الأول لرحلتهم، وبعد أن أخذ من الشجرة ما شاء من الأزهار والأغصان، عادا إلى بيت الفقيه .

وفي تلك الأثناء أصيب كل من نيبور وفون هافن بمرض الملاريا، فقرر أعضاء البعثة مغادرة مدينة بيت الفقيه نظراً لعدم ملاءمة جو تلك المدينة لهم.

القسم السادس: ويشتمل على ستة فصول :

نظراً لأن برنامج البعثة كان يتضمن زيارة مدينتي المخاء وصنعاء كان أعضاء البعثة في حيرة من أمرهم إلى أي من المدينتين يذهبون أولاً ، وأخيراً استقر رأيهم على الذهاب إلى المخاء ، ونظراً لشدة الحرارة في ذلك الوقت كان فورسكال ونيبور يذهبان في النهار، ويتبعهم باقي أفراد القافلة في أثناء الليل، وبعد أن وصلت البعثة إلى مدينة المخاء بكل جهد وعناء، قابلتهم متاعب كبيرة من الأهالي ومن موظفي الجمرك، حيث فتح المسئولون في الجمرك الصناديق الخاصة بهم وألقوا بمحتوياتها على الأرض وقد تألم كثيراً فورسكال لهذا العمل لأنه تعب كثيراً وبذل جهداً مضنياً في جمع محتويات تلك الصناديق.. وفي مدينة المخاء توفي فون هافن بعد أن اشتد عليه المرض ودفن هناك.. وبذلك تكون البعثة قد فقدت أول عضو من أعضائها ، وكان الشيء الوحيد الذي أسعدهم هو مقابلتهم لثلاثة من التجار الإنجليز الأغنياء كانوا قد قدموا مع مجموعة من السفن التجارية القادمة من الهند .

بعد هذه المعاناة وبعد موت زميلهم هافن قرر أعضاء البعثة السفر مع التجار الانجليز إلى الهند هروباً من المرض والموت ، ولكنهم أرادوا أن يستفيدوا بالوقت الباقي على عودة السفن الانجليزية ، ويقدر هذا الوقت بشهر واحد ، فقرروا السفر إلى صنعاء في زيارة سريعة تنتهي قبل انقضاء الشهر، وبعدها يعودون إلى المخاء ليلحقوا بالسفن الإنجليزية .

كان عليهم الذهاب عن طريق مدينة تعز، التي بقوا بها عدة أيام ثم واصلوا رحلتهم إلى صنعاء وفي الطريق مرض فورسكال ولم يستطع مواصلة السير معهم، ومات في الطريق ودفن

في إحدى القرى هناك ، وفقدت البعثة بموته الرجل الثاني من أعضائها.

وعلى الرغم من أن فورسكال هذا قد مات باليمن قبل أن ينهي مهمته ودون أن يعود إلى الدنمارك ، إلا أنه قد استطاع أن يرسل إلى الدنمارك وإلى بعض جامعات أوروبا عدداً كبيراً من الصناديق التي ملأها بالكائنات البحرية ، وبالنباتات، وبالبذور الصالحة للزراعة ، وبمجموعات لابأس بها من الأعشاب والأبحاث التي كتبها ومذكراته عن الرحلة ووصفه التفصيلي للنباتات والحيوانات وأبحاث عن عادات المسلمين وعن الديانة القبطية، وعن تاريخ اليمن القديم، وبيانات عن الأسعار والبضائع والعملة والموازين والمقاييس في كل البلدان التي مر بها.

واصلت البعثة المسير حتى صنعاء بالرغم من موت فورسكال وبالرغم من كل الظروف الصعبة التي واجهوها في الطريق، وفي صنعاء احتفى بهم الإمام وأكرمهم واستضافهم وجعلهم في أمان واستطاع نيبور أن يعمل هناك بحرية وأن يقيس الزوايا ويرسم خريطة للمدينة، كما زار الأسواق والمتاجر الموجودة بها وبعد أن ودع الإمام أعضاء البعثة، عادوا مرة أخرى إلى مدينة المخاء وفوجئوا برحيل السفن الإنجليزية من الميناء وعودتها إلى الهند ، ولكن ظهرت لهم بادرة أمل عندما وجدوا إنجليزياً أخبرهم بأنه توجد سفينة إنجليزية في جدة كانت قد أرسلت إلى هناك محملة بالبن وسوف تعود ويسافرون عليها إلى الهند ، وعندما عادت السفينة إلى المخاء كان كل أعضاء البعثة قد أصابهم المرض . وبعد أن حملتهم السفينة وفي أثناء سيرها في المحيط مات الفنان بورنفانيد والخادم برجرن وألقى بجثتيهما في ماء المحيط ، ولم يصل من أعضاء البعثة سالماً إلى بومباي في الهند سوى اثنين فقط هما نيبور وكرامر .

القسم السابع: ويشتمل على ستة فصول:

بعد أن نزل نيبور وكرامر في بومباي ، توفى هناك الدكتور كرامر ، بذلك لم يبق من أفراد البعثة سوى شخص واحد هو كارستن نيبور عالم الرياضة والفلك ومساح البعثة . وبعد أن تحسنت صحته واستعاد نشاطه ركب سفينة حربية إنجليزية قاصداً مسقط ، وبعد أن قضى فيها أسبوعين ، ركب سفينة إنجليزية أخرى أودعته بوشهر في إيران ، ومن هناك ذهب إلى آثار بيرسيبلوليس التي ظل يزاول عمله بها مدة شهر كامل ، وبعدها عاد إلى بوشاير ، ليركب

سفينة تذهب به إلى البصرة التي أمضى بها أربعة أشهر ، وكتب خلال بقائه بها تاريخ المدينة الحديث ، وعمل خريطة لشوارعها ، ومن هناك ذهب إلى بغداد وبعدها إلى الموصل ثم واصل رحلته إلى حلب ومنها إلى الإسكندرية ، وركب من هناك سفية إلى جزيرة قبرص ، ومنها جاء إلى ميناء يافا في فلسطين ، ودخل مدينة القدس ، ثم ذهب إلى عكا ومنها إلى صيدا ، ثم إلى دمشق واللاذقية وبعد ذلك ذهب إلى القسطنطينية عن طريق قونيا ، وبعد أن بقى بها أربعة أشهر ، غادرها متوجهاً إلى بوخارست وهي تعتبر أول مدينة أوروبية تقع عليها عيناه منذ أن غادر كوبنهاجن في بداية رحلته هذه ، وأخيراً عاد كارستن نيبور إلى كوبنهاجن في تشرين الثاني «نوفمبر سنة ١٧٦٧» حيث لم يقابل بالحفاوة والترحيب كما كان يتوقع ، واضطر أن يعيش باقي حياته في مكان ريفي ناء ومهجور. .

هذه باختصار هي حكاية البعثة العلمية التي أرسلتها حكومة الدنمارك لاستكشاف اليمن ، كما وردت في كتاب «من كوبنهاجن إلى صنعاء» .

ونلاحظ على هذا الكتاب أن كاتبه يعتمد على الأسلوب القصصي ويبتعد عن الأسلوب المعروف في كتب الرحلات ، فالكتاب في مجمله يوحي بما يشبه أن يكون قصة من تأليف الكاتب ، وكأن أبطالها هم أبطال الرحلة ، فبدلاً من أن يقص هؤلاء الرحالة علينا مشاهداتهم ، وينقلونا إلى الأماكن التي شاهدوها ، لنعيش فيها معهم فيصفون مثلاً المدن التي شاهدوها وكيفية بناء منازلها ومعالمها ، وتصوير شوارعها وحياتها ، وسلوك الناس الذين اختلطوا بهم ، وطرق معيشتهم ، وعاداتهم الاجتماعية المختلفة ، والمناسبات التي يحتفلون بها ، والأعمال التي يقومون بها ، وكيف يمارسونها ، ويصفون الأراضي التي رأوها ، والمزارع ، والأشجار ، والفواكه ، وصفاً دقيقاً جميلاً وما شابه ذلك من أشياء . ولو تم ذلك لكان الكتاب قد أقنع قارئه وأفاده بمشاهدات أعضاء الرحلة .

بدلاً من كل ذلك نجد أن الكاتب ، يهتم بشخصيات البعثة أكثر من اهتمامه بسرد مشاهداتهم ، ويخصص الجزء الأكبر من صفحات كتابه لسلوك الأعضاء الخمسة الذين اشتركوا في تلك البعثة، فيتكلم عن نزعات وسلوك كل واحد منهم على حده ، نراه يصور أحدهم بالطموح والنشاط ، ويظهر ما في داخل شخص آخر من الحقد والحسد ، فيكيد للآخرين ، لأنه أناني ، يريد أن يصل هو فقط إلى كل شيء وفي سبيل تحقيق أغراضه، لا يتورع عن عمل

أي شيء حتى أنه يستبيح لنفسه الاعتداء على كرامة الآخرين مستعملاً في سبيل ذلك ، سلاح السب البذيء ، والصفع على الوجه بدون وجه حق ، ويصف الكاتب شخصاً آخر ، بأنه عديم الشخصية ، وسلبي ، ولم يقم بأي دور يذكر في الرحلة . وبذلك يكون الكتاب وبكل أسف قد تحول من كتاب للرحلات بحكم عنوانه إلى كتاب قصصي .

نلاحظ أيضاً في الكتاب وبين ثنايا نصوصه بعض التعبيرات التي نشعر منها وعن طريق خفي أو غير مباشر ، مدى حساسية كاتبه المسيحي نحو المسلمين . . فنجده ، على سبيل المثال، وفي أكثر من موقع من صفحات الكتاب ، يتعمد ذكر مدينة استانبول باسمها القديم «القسطنطينية» فإذا كان تاريخ تلك الرحلة العلمية هو أوائل سنة ١٧٦١م ، فإن السلطان العثماني محمد الفاتح ، قام بفتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م[٩]، وبعد هذا الفتح تغير اسم القسطنطينية وأصبحت تسمى استانبول ، ويعني هذا أن تاريخ فتح المدينة تم قبل بدء الرحلة بحوالي ثلاثة قرون ، ومع ذلك ، نجد الكاتب لا يريد أن يعترف بذلك ، ولم يحاول ذكر اسم استانبول ولو مرة واحدة .

في مكان آخر نجد انه عندما رأى نيبور في ميناء مسقط سفينة عربية ، يعمل عليها مرتزقه من الفرنسيين يقول عنهم «من بقايا الجيوش الاستعمارية المهزومة المشتتة ، الذين لاقوا المصير الفظيع ، باضطرارهم إلى العمل مع المسلمين. .»[١٠].

بعد مطالعة العبارة السابقة، لست أدري لماذا عندما اضطر هؤلاء الفرنسيون إلى العمل مع المسلمين ، أصبح مصيرهم مصيراً فظيعاً ، فما هو ياترى المصير الفظيع الذي يتسبب فيه المسلمون لمن يعمل معهم من المسيحيين ، اللهم إلا أن يكون هذا نوعاً من التعصب الديني الأعمى ، وكرهاً دفيناً للمسلمين .

وهناك إشارة أخرى في الكتاب، تجعلنا نشم المزيد من رائحة الحقد على الدين الإسلامي ، وذلك عندما يطالعنا النص التالي: «نتيجة لنقاش بين أفراد البعثة وبين ذلك الرجل المسلم الذي كان يعمل كاتباً في السفينة ، خرج فون هافن ، في أثناء النقاش من الموضوع وأشار في تهور ، إلى أن الديانة المسيحية، أفضل وأحسن من الديانة الإسلامية. .»[١١] ومن التعليق الذي جاء على لسان فنان البعثة العلمية ومساحها نيبور على تلك الواقعة المذكورة في النص السابق نلاحظ أنه يقوم بدور المبشر للدين المسيحي بدهاء وبدون أن يشعر به أحد ، حتى

يستطيع إقناع الآخرين دون أن يجعلهم يقابلونه بعداء وكراهية ، ويرفضون كلامه يقول نيبور، «لقد ذكرنا قول الرجل المسلم الفاضل، بأن على الإنسان أن ينظر نظرة شامخة إلى كل شخص يعتقد أن دينه أحسن دين ، وأنا شخصياً لا أرى من واجبي هداية الناس ، ولكن ، حين كنت أستفهم من بعض المسلمين العقلاء عن جوهر الدين الإسلامي ، كنت أطلعهم أيضاً أثناء الحديث على أشياء كثيرة في الدين المسيحي ، ودون أن أزعم بأنها أحسن من المعتقدات التي جاء بها القرآن.. ولهذا لم يغضب أحد مني..»[١٢]..

ولعلنا نحس أكثر بهذا التعصب ، عندما يحكى لنا نيبور[١٣] قصة شرائه عبداً أسود من أبوين كاثوليكيين ، كان يريد أن يصحبه في رحلته إلى الصين ، ولكنه عندما عدل عن الذهاب إلى ذلك البلد ، وأراد العودة إلى الدنمارك عن طريق البلاد الإسلامية ، أطلق سراح ذلك العبد، خوفاً من أن يأخذه المسلمون منه ، اعتقاداً منهم بأنه من أبوين مسلمين ، وهنا يتضح لنا أن نيبور ، فضل عتق هذا العبد حتى يظل على دينه المسيحي ، بدلاً من أن يأخذه منه المسلمون ويحولونه إلى الديانة الإسلامية .

ونكتفي بهذه الأمثلة مغمضين أعيننا عن المحاولات العديدة الموجودة في الكتاب بقصد الإساءة إلى المسلمين في مختلف البلاد التي زارتها البعثة، والتشهير بهم ، وكأن الكتاب يحكى نوادر توحي بالضحك والسخرية منهم. وكذلك المحاولة الخاصة بالنيل من شرف وعفة المرأة المسلمة ، ويبدو ذلك جلياً عندما عرض علينا الكاتب أولاً ضمن وصايا ملك الدنمارك للبعثة ، ضرورة عدم تصرفهم مع نساء المسلمين ، بحرية كما يتصرفون مع النساء الأوروبيات[١٤] ثم نراه يحاول أن يعرض علينا النقيض لمعنى هذه الوصية ، حين يدَّعى أنه قد حدث تجاوب بين بعض أعضاء البعثة وفتيات تركيات مسلمات[١٥] كن راكبات في السفينة التركية الذاهبة من استانبول إلى الإسكندرية ، وتبادلن مع أفراد البعثة الحديث والهدايا .

ومرة أخرى ، يذكر نفس الشيء عن نساء مسلمات كن يركبن السفينة الذاهبة من السويس إلى الحج[١٦] علماً بأن نيبور في ثنايا حديثة قد جعل نفسه نموذجاً مجسداً لقلة الذوق والخلق عندما أخذ يبحث بطريقة وضيعة وغير أخلاقية في حمام الرجال بالسفينة عن طريقة يستطيع بها رؤية النساء المسلمات وهن في حمامهن المجاور لحمام الرجال[١٦].

وأخيراً ، لابد أن نسجل بالتقدير جرأة وشجاعة أعضاء تلك البعثة في إقدامهم على مغامرة كهذه ، فهي تعتبر في ذلك العصر عملية انتحارية بمعنى الكلمة، ومما يثبت لنا مدى شجاعة هؤلاء الناس وإصرارهم على تنفيذ خطتهم ، أنهم عندما رأوا بأعينهم شبح الموت يواجههم في اليمن ، وذلك بعد أن مرض معظم أفراد البعثة وبعد أن مات عضو من أعضائها في مدينة المخاء ، نجد بقية أفراد البعثة يصرون على الذهاب إلى صنعاء ، وقد واجه العضو الثاني منها في الطريق إليها مصيره المحتوم ، وبرغم ذلك أيضاً واصل باقي أعضاء الفريق السير حتى مدينة صنعاء ، ويضرب لنا نيبور المثل في الشجاعة عندما يرى أن جميع أعضاء البعثة قد سقطوا صرعى الواحد تلو الآخر أمام عينيه ، ولم يبق منهم أحد سواه ، ومع ذلك لم يقرر ترك الهند راكباً إحدى السفن التي تأخذ طريقها مباشرة إلى الدنمارك حتى يهرب من ملاقاة الموت ، ولكنه يقرر العودة إلى بلاده بطريق المغامرة أيضاً ، والقيام برحلات أخرى خطيرة في العراق وإيران وسوريا وفلسطين وقبرص وغيرها من البلاد .

وهكذا تنتهي هذه الرحلة الطريفة التي تمثل بداية اللقاء والاحتكاك بين الشرق والغرب والتي انتهت بموت أعضاء هذه البعثة في البر والبحر ، ولم يعد منهم سوى واحد شأنهم مثل المئات والآلاف من هواة المغامرات والرواد ومحبي الاكتشافات قديماً وحديثاً . .

● ● ●

الهوامش :

(١) من كوبنهاجن إلى صنعاء ص ٢٤.
(٢) نفس المرجع ص ٢٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) نفس المرجع ص ٢٩.
(٥) نفس المرجع ص ٣١.
(٦) نفس المرجع ص ٤٦.
(٧) نفس المرجع ص ٣٦ ، ٣٧.
(٨) Enver Benhan Sapolyo, Osmanle Sultanlare Tarihi, Istanbul, 1961 S.98.
(٩) كتاب «من الدنمارك إلى صنعاء» ص ٣٣٩.
(١٠) نفس المرجع ص ١١١.
(١١) نفس المرجع ص ١١٢.
(١٢) نفس المرجع ص ٣٣٥.
(١٣) نفس المرجع السابق ص ٧٠.
(١٤) نفس المرجع السابق ص ١١٣ ، ١١٤.
(١٥) نفس المرجع السابق ص ٢٠١.
(١٦) نفس المرجع السابق ص ٢٠١.